الصَّاحِبُ بنُ عبَّاد بَلَاغِيًّا

م. د. مصعب ماجد جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد/ قسم اللغة العربية

الملخص:

لا تخفى على الدارسين شهرة أبي القاسم إسماعيل بن عبَّاد (ت385هـ)، الأديب العالم والشاعر المتفنّن، وزير آل بويه في إيران، صاحب التصانيف الكثيرة في العلوم المختلفة، منها العقيدة والاعتزال وعلم الكلام، والنقد الأدبي والمختارات الشعرية، والمعجم اللغوي، وفنون الكتابة للمبتدي والمنتهي.

ولهذا الأديب أسلوب خاص في الكتابة وقف عنده القدماء قبل غيرهم، فوصفوه مادحين، وأحيانًا قليلة نقدوه. والدراسات عن حياته ومؤلَّفاته كثيرة، لكنْ لم أجد بحثًا علميًّا عن هذا الأديب في جهده البلاغي، أي علم البلاغة ونقده.

وحين قرأتُ رسالة صغيرة له اسمها: (رسالة في الهداية والضلالة) وجدت فيها شذرات يمكن البناء عليها في هذا الباب، فحاولت جمعها وترتيبها مع أمثالها في رسالة (الكشف عن مساوئ المتنبي) و(الفصول الأدبية)، والتأصيل لها وتبيان قيمة جهده في البلاغة، أو البلاغة والتفسير، وتأتي أهمية البحث من تقدُّم زمن ابن عبَّاد، ولأنّ البلاغة في زمنه لم تستقرّ.

الكلمات المفتاحية: الصاحب بن عبَّاد، البلاغة القرآنية، العقيدة والبلاغة، التأسيس البلاغي.

Al-Sahib Ibn Abbad as a rhetorician
Dr. Musaab Majid
University of Baghdad, College of Education, Ibn Rushd, Department of Arabic Language

Summary
The fame of Abu al-Qasim Ismail ibn Abbad (d. 385 AH), the learned writer and talented poet, the minister of the Buyids in Iran, the author of many books in various sciences, including doctrine, Mu'tazila, theology, literary criticism, poetic selections, linguistic dictionary, and the arts of writing for beginners and advanced students, is not hidden from scholars. This writer has a special style of writing that the ancients stopped at before others, so they described him in praise, and sometimes criticized him in a few cases. There are many studies on his life and works, but I have not found any scientific research on this writer in his rhetorical efforts, i. e. the science of rhetoric and its criticism. When I read a small letter of his called: (A Letter on Guidance and Misguidance), I found in it fragments that could be built upon in this regard, so I tried to collect them and arrange them with their counterparts in the letter (Uncovering the Evils of Al-Mutanabbi) and (Literary Chapters), and to establish them and clarify the value of his effort in rhetoric, or rhetoric and interpretation. The importance of the research comes from the advancement of Ibn Abbad's time, and because rhetoric had not settled in his time.

Keywords (Al-Sahib bin Abbad, Quranic rhetoric, Creed and Rhetoric, foundation Rhetorical).

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبيّ الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعدُ:

فقد شهد القرن الرابع ذروة الحركة الشعرية والنقدية والأدبية، وفيه عاش أبو القاسم إسماعيل بن عبَّاد وزيرًا في حضرة البويهيين مع التألق الثقافي والحضاري للدولة العباسية، ولا بد لمثله أن تكون قدمه راسخة في الكتابة الأدبية وبلاغتها، لطبيعته نشأته ومنصبه بقرب الحكام والوزراء، وأغلبهم متمكن أدبيًا ويكفي مثالًا لذلك الوزير أبو الفضل محمد بن العميد.

لم أجد فيما اطلعتُ عليه من ترجمة ابن عبَّاد أنّه ألّف كتابًا في علوم البلاغة، ولكنّ أفكاره في مؤلَّفاته التي وصلتنا يمكن جمعها واستخلاص جهده فيها.

وآراؤه البلاغية موجودة في رسالته: (رسالة في الهداية والضلالة) ورسالة (الكشف عن مساوئ المتنبي)[1]، ثُمّ مقدِّمة كتابه (الفصول الأدبية).

وعند قراءة هذه الأقوال يتبيّن أنّ لها ثلاثة أهداف، أولهما تعليم الكتّاب وأصحاب الترسل، ومن يريد الترفّع في شروط الكتابة البليغة، وثانيهما تبيان الأسلوب القرآني المعجز، وثالثهما خدمة مدرسته في الاعتزال[1].

---

[1] ذكر الدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي عند العرب:267 أنّ آراء الصاحب في هذه الرسالة خواطر وليس أصولا واضحة، وهذا صحيح ولكن ينبغي التنبّه إلى زمن الرسالة المتقدّم أولًا والثقافة الموسوعية للصاحب ثانيًا.

- الحاجة إلى علم البلاغة

يرى الصاحب أنّ هذا العلم يحتاجه كل كاتب أو مَن له تعلق بصنعة الكتابة، يقول: "فإنّي وجدت الكتابة أنفس الصنائع مرتبة، وأشرفها منزلة؛ وأرفعها قدْرًا؛ وأعلاها ذكرا؛ وأجلّها شأنا؛ وأعمّها نفعا. ووجدت كلّ متحلٍّ باسم الكتابة؛ وداخل في هذه الصناعة، محتاجًا إلى لباس جمالٍ من البلاغة؛ مفتقرًا إلى زيادة بيانٍ من الفصاحة؛ ليكون بذلك أعم الناس فضيلة؛ وأوكدهم عند الحاجة وسيلة ..." (ابن عبَّاد، 1982: 37- 38).

- شروط الفصاحة:

1- البعد عن التعمق والتكلف، والتعسف، وقد جاء هذا الشرط أساسا لكتابه (الفصول الأدبية) الذي لم يسهب فيه، بل جاء عن سجية، قال: "وأودعتها أقرب متناول، يسهل على العامة في تحاورها؛ ويخفُّ على الخاصة في تناقلها، بعيد من التعمّق والتكلّف، خارج عن الإطالة والتعسف" (ابن عبَّاد، 1982: 39).

وعلة الاختصار والبعد عن الإسهاب أن يجنب القارئ الملل، وأيضا التزم بهذا في تصنيف الفصول الأدبية، فهي: "تشتمل على أنواع من الفصاحة؛ وأبواب من البلاغة؛ وفنون من الكتابة، على سبيل الإيجاز والاختصار؛ دون الإسهاب والإكثار، فإنّ البليغَ إذا أطال أدى إلى الملل؛ ولم يُؤمَنْ فيه من العِيّ والفشل" (ابن عبَّاد، 1982: 39).

---

(1) وليس هذا بمستغرب، ولا سيما عند المعتزلة، إذ اقترنت أسماؤهم بها، ودونك بشر بن المعتمر والجاحظ وأبا علي الفارسي والرماني والمرزباني وابن جني وابن سنان والزمخشري والمطّرزي والسكّاكي.

وفي هذا أثر الجاحظ في مقولاته المشهورة[1].

2- تجنب الضعف المعنوي. لا بد على الأديب أن يخلو كلامه من العيب لفظًا ومعنى، لذا أخذ على أبي تمّام في قوله:

كريم متى أمدحه أمدحهُ والورى معي ومتى ما لمته لمته وحدي

عيبًا بأنّه" قابل المدح باللوم فلم يوف التطبيق حقه، إذ حق المدح أن يقابل بالهجو أو الذم، على أنّه قد روي:

... ومتى ما ذمته ذمته وحدي" (ابن عبَّاد، 1965: 34)[2].

وانتقد المتنبي في قوله (ابن عبَّاد، 1965: 69):

وبهِ يُضَنُّ على البريّةِ لا بها وعليه منها لا عليها يُوسى

فثمة تعقيد في المعنى، والمتنبي أراد أنّه يُضنّ بالممدوح على البرية، ولا يُضنّ على الممدوح بالبرية.

3- أن لا تكون الاستعارة متكلّفة. ومثالها قول المتنبي:

في الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولَا

"فالمحول في الخدود من البديع المردود" (ابن عبَّاد، 1965: 59)، (عباس، 1993: 226)[3]. ولا يريد هنا بالبديع المحسنات اللفظية والمعنوية، ففي زمنه لم يكن هذا معناه.

---

[1] في كثير من المواضع في كتابه البيان والتبيين، ولا سيما قوله:191/1" وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف، والإسهاب والإكثار، لما في ذلك من التزيد والمباهاة...".

[2] هذا مأخذ ابن عبَّاد، ثم ينقل عن ابن العميد أن الخلل غير ذلك، بل ما فيه من تكرير سببه الجمع بين الحاء والهاء مرّتين.

[3] وقد ظلم المتنبي في هذا البيت فرآه: "من استرسالاته إلى الاستعارة التي لا يرضاها عاقل ولا يلتفت إليها فاضل".

وقد أضاف عيبًا آخر في البيت أنّه مطلع قصيدة ولا يصح الابتداء بالنفور والمحول، لما فيه من أثر على النفس.

والعلة نفسها أخذها على المتنبي في قوله:

صلاة الله خالقنا حَنوطٌ على الوجه المكفن بالجمالِ

مع أنّ الناس يشيدون بهذه الاستعارة إلا أنّه يخالفهم، "وقد قال لي بعض من يغلو فيه: هذه استعارة، فقلت: صدقت ولكنها استعارة حدّاد في عرس فلا أدري هذه الاستعارة أحسن؛ أم وصفه وجه والدة ملك يرثيها بالجمال؛ أم قوله في وصف قرابتها وجواريها:

أتتهن المصائب غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال" (ابن عبَّاد، 1965: 47)[1].

وفي موضع آخر انتقد التشبيه، في قوله:

وشوق كالتوقد في فؤاد كجمر في جوانح كالمُحاش

بأنّه تشبيه متناسب في الخذلان(ابن عبَّاد، 1965: 71)، (عباس، 1993: 266)[2].

ويقول ناقدًا المتنبي: "ولما سمع قبله قد أبدعوا فقالوا:

بيد السماك خطامها وزمامها وله على ظهر المجرّة مركبُ

تشبَّهَ بهم فجعل للبنين حلواء فقال:

وقد ذقت حلواء البنين على الصِّبا فلا تحسبني قلتُ ما قلتُ عن جهلِ

وما زلنا نتعجب من قول أبي تمام:

---

[1] وهنا يبدو أثر تحامله على المتنبي، والبيت غاية في الجمال، لأنّ المتنبي جمع بين بكاءين، يريد أنّهن متعودات على الدلال، وأتت المصيبة غفلة، فاختلط دمع الدلال مع الحزن.

[2] وهنا أيضًا تحامل على المتنبي، وغمط جمال التشبيه.

لا تسقني ماء الملام فإنّني صبّ قد استعذبت ماء بكائي
فخف علينا بحلواء البنين" (ابن عبَّاد، 1965: 49).

وقد شرح ابن سنان مأخذ الصاحب بأنّه من رديء الاستعارة، وزاد في قبحه (حلواء)، والأصل (حلاوة) (الخفاجي، 1952: 154).

4- خلو الكلام من الغريب والحوشي. قال واصفًا أبا الطيّب المتنبي: "ومن أطمّ ما يتعاطاه التفاصح بالألفاظ والكلمات الشاذة؛ حتّى كأنّه وليد خباء وغذي؛ ولم يطأ الحضر؛ ولم يعرف المدر، فمن ذلك قوله يرثي طفلًا:

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكلِ

وما أدري كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره، وليس ذلك سائغاً لمثله؛ وهو وليد قرية، ومعلم صبية" (ابن عبَّاد، 1965: 48).

والأمر نفسه في قوله:

رواق العز فوقك مسبطر وملك عليّ ابنك في كمالِ

فلفظة (مسبطر) حوشية ونابية مكروهة، ولا علاقة لها بمناسبة القصيدة ومراثي النساء (ابن عبَّاد، 1965: 46).

وقال ناقدًا المتنبي: "ومن لغاته الشاذة وكلماته النادرة قوله:

كل آخائهِ كرامُ بني الدنـ يا ولكنّه كريم الكرام

ولو وقع (آخائه) في زائية الشماخ لاستثقل، فكيف مع أبيات منه:

قد سمعنا ما قلت في الأحلام وأنلناك بدرةً في المنام

والكلام إذا لم يتناسب زيّفه جهابذته وبهرجه نقاده" (ابن عبَّاد، 1965: 54).

وإنكار الصاحب استعمال (التوراب) و(آخائه) وأنّ الأفصح (التراب) و(إخوته أو إخوانه)، مبالغة منه؛ لأنّهما على القياس ومستعملتان ولكن قليلًا.

4- التخلّص من التعقيد اللفظي. قال: "وكنت أتعجب من كلام أبي يزيد البسطامي في المعرفة؛ وألفاظه المعقدة؛ وكلماته المبهمة، حتى سمعت قول شاعرنا هذا في وصفة فرس:

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوحٌ لها منها عليها شواهد" (ابن عبَّاد، 1965: 52)

وعاب على المتنبي مرة أخرى قائلا: "وله بيت لا أدري أمدح المقول له أم رقاه وهو قوله:

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرحٌ من تحته وصهيل

فلم يرض بأن سرق من بشار قوله:

والخيل شائلة تشق غبارها كعقارب قد رفعت أذنابها

حتى ضيّع التشبيه الصائب بين ألفاظ كالمصائب" (ابن عبَّاد، 1965: 54).

5- أن يكون التكرار متناسبًا مع السياق معنىً وجمالًا، فعاب على المتنبي قوله:

فإن تكن الدولات قسمًا فإنها لمن ورد الموت الزؤام تدول

"فإنّ قوله: (الدولات) و(تدول) من الألفاظ التي لو رزق فضل السكوت عنها لجاء دراً" (ابن عبَّاد، 1965: 55).

وأيضًا نقد المتنبي في قوله:

عظمت فلما لم تكلم مهابة تواضعتَ وهو العظم عظم من العظم

"فما أكثر عظام هذا البيت، ولو وقع عليه أبو الكلاب بجميع كلابه وهي جائعة لكان فيه قوت، ومع أنّه من قول حبيب بن أوس الطائي:

تعظمت عن ذاك التعظم فيهم وأوصاك نبل القدر أن تتنبلا

وكان الرجل محرباً فقال في صفة الحرب وما تنتج من رعب القلب" (ابن عبَّاد، 1965: 65)، (طه، 1981: 147).

وانتقد المتنبي في قوله:

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

استنكر تكرار (فقد)، قائلًا: "وأظن المصيبة في الراثي أعظم منها في المرثي" (ابن عبَّاد، 1965: 48).

6- تجنب الكلمات المتنافرة. قال: "ومما لم أقدره يلج سمعاً أو يرد إذنًا قوله:

جوابُ مُسائلي ألـهُ نظيـرٌ ولا لـك فـي سـؤالك لا ألا لا" (ابـن عبَّـاد، 1965: 58)

ووجه التنافر تكرار (لا) مرّاتٍ.

وانتقد المتنبي في قوله:

أسائلُها عن المتديّريها فما تدري ولا تذري دموعَا

"فإنّ لفظة (المتديريها) لو وقعت في بحر صاف لكدرته، ولو أُلقي ثقلها على جبل سام لهدّه، وليس لها في المقت غاية، ولا في البرد نهاية" (ابن عبَّاد، 1965: 63)، (عباس، 1993: 267)، (طه، 1981: 146)[1].

ونقل الواحدي (ت468هـ) عن الصاحب -ولم أجده فيما وصلنا من مصنّفاته- أنه عاب على المتنبي قوله:

فقلقتُ بالهمّ الذي قَلْقل الحشا قَلاقِلَ عِيسٍ كُلهُنَّ قَلَاقِلُ

[1] ويمكن الرد على ابن عبَّاد أن اللفظة وإن كانت غريبة متنافرة فإنها موافقة لسياق القصيدة ومناسبتها، لأنه وصف الأطلال البالية، وهي صعبة الحال وغريبة على ناظرها، فلِمَ لا تأتي اللفظة صعبة اللفظ غريبة؟

قائلًا: "ما له قلقل الله أحشاءه وهذه القافات باردة" (الواحدي، 1891: 50). ولكن الواحدي نفى الخطأ عن المتنبي بأنّ هذا عادة الشعراء. وأيّد ابنُ الأثير كلام الصاحبِ، ولم يجد ما يسوّغ مجيء (قلقل) أربع مرّات بمعنى واحد (ابن الأثير، 1969: 208-209)[1].

7- أن يكون توليد الألفاظ جاريًا على الذوق السليم، وقد مدح المتنبي في قوله: "ومن تصريفه الحسن وضعه التقييس موضع القياس في قوله:

بشرٌ تصور غايةً في آية تنفي الظنون وتفسد التقييسا" (ابن عبَّاد، 1965: 69)

وفي موضع آخر أخذ عليه، قائلا: "ومن مجازاته التي خلقها خلقًا متفاوتًا تخفيفه (الغاش)، وهذا ما لا أعلم سامعًا باسم الأدب سوّغه وسمح فيه فجوّزه، وذلك في قوله:

كأنّك ناظر في كلّ قلب فما يخفى عليك محلّ غاشِ

وإن جاز هذا جاز أن يقال: عبَاس بن عبد المطلب والشمَاخ بن ضرار، فلا تشدد الباء من عبّاس والميم من الشمّاخ (ابن عبَّاد، 1965: 71).

واعتراض الصاحب لأنّ

لفظ (فاعل) يُبنى على (فعل) مشدد، والفعل غشّ فاعله غاشّ بالتشديد، ولكنّ المتنبي جاء به مخففًا (غاشِ) (ابن فورّجة، 1974: 164)[2].

---

[1] وثمة رأي آخر متحامل على المتنبي لابن وكيع التنّيسي (ت393هـ) أن علة البيت المجانسة، لأن المتنبي قليل المجانسة وإذا جانس جاء بغير طائل (ابن وكيع، 2021: 248/1).

[2] وقد انتصر المعرّي في اللامع العزيزي:647/1 وابن فورّجة في الفتح على أبي الفتح:164 للمتنبي بأنه (غاشِ) فاعل لـ (غشيَ)، وأن تخيف المشدد في الشعر المقيّد كثير جدًا.

8- أن لا يكون المعنى مكروهًا. لذا أخذ على المتنبي في قوله:

إنّي على شغفي بما في خُمرها لأعفُّ عمّا في سراويلاتها

بأنّ (سراويلاتها) فيها قبح يصد النفس فتأباه (ابن عبَّاد، 1965: 75)، (عباس، 1993: 268)،[1]، ومن الأفضل التكنية عن هذا المعنى.

- بلاغة الكلام

حتى تكون الجملة بليغة لا بد لها أن تتميز بأمرين:

1- يقترح أن يكون الكلام على أساس راسخ متميز ومترابط، وتحديدا بالعودة إلى أساليب العرب المعهودة، يقول: "اعلم -علمك الله الخير وجعلك من أهله- أنّ الكلام إذا وقع في فرع لم يشيد أساسه، كان كالتماس ثمر لم يتقدّم غراسه، فالواجب على من نصح المسترشد، أن ينبهه على الأصل المعتمد، ليعرف كيف يتدرج الكلام إلى ما وقع عليه السؤال، وحدث الجدال" (ابن عبَّاد، 1955: 34- 35).

2- والالتزام بالأمر الأول فائدته الابتعاد عن الحوشي والغريب لتسببه بالنفرة" حتى لا يبدهه ما لم يعهده، فتلحقه نفرة الوحشة، ويفاجئه ما لم يعهده، فيجد به أنس الإلف والعادة" (ابن عبَّاد، 1955: 35).

- بلاغة القرآن الكريم

للصاحب نظرة في تعامل الدارس مع القرآن الكريم، من يطلع عليها يعرف أثر العقيدة (الاعتزال) فيها، ولم يكن في قوله ناقلًا أو عارضًا لكلام غيره، بل يورد ما لديه مدافعا عنه بحجج علمية تبيّن تمكّنه من أدواته

---

[1] تاريخ النقد الأدبي عند العرب:268، ونقل الواحدي في شرح ديوان المتنبي:278 عن تلميذ المتنبي أن اللفظة لدى المتنبي (سرابيلاتها) أي قميصها، ولكن الصاحب غيرها إلى (سراويلاتها).

اللغوية والكلامية، وتظهر شيوع الاعتزال في تلك المنطقة حينها، فلم يكن الصاحب بدعًا عنهم[1]. وتقريبًا لكلامه أعرضه بهذه الصورة:

1- لا ينبغي تأويل القرآن الكريم على طريق المُجْبِرَة (أنّ الإنسان مسيّرٌ وليس مخيّرًا)، لأنّه سيكون حجة للكافرين والمعارضين، قال تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) [البقرة:18]، وهنا سيكون الرسول مخالفا لما يريد الله تعالى، لأنّه يدعوهم إلى الإيمان، مع أنّ الله طبع على قلوبهم. بدليل أنّ الكفار كانوا يطلبون تأويل الكتاب العزيز بالعلل، ويعملون في إطفاء نوره بالحيل، ولقالت القدرية للنبي (صلى الله عليه وسلم): كيف تدعونا إلى الإيمان، ولم تقطعنا بظبة السيف وحد السنان، وهذا الكتاب الذي أتيت به ينطق عن أنّا لا نستطيع الإسلام، أُمِرْنا سلوكَ الطريق وسُدَّ علينا المضيقُ، بل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يريد عكس ما يريده الله (ابن عبَّاد، 1955، يُنظر:35).

وهذا الأسلوب في التأويل للمجبرة اعتمده ابن الراوندي الملحد فقال: "إنّ القرآن يدفع كل فريق منه فريقًا" (ابن عبَّاد، 1955: 39). ولكن لم يتدبر أو تناسى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) [آل عمران:7].

وما قاله الصاحب تأكيد لفكرة الإيمان الفطري، المتلائم مع العقل والعلم والغيب، وليس قائما على المنطق فقط. فالاعتماد على هذا الأخير قد يخرج المرء من الإسلام. واعتراض الكافرين يعيدنا إلى فكرة نظرية

[1] وقد ذكر في رسالته الهداية والضلالة أن شيوخه ألفوا في ذلك– تفسير القرآن الكريم أو تأويله – كثيرا.

الصَّرفة، وما فيها من إشكال عقلي، فكيف يصرفهم عن معارضة الذكر الحكيم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله.

2- البيان القرآني يقتضي إعادة المتشابه إلى المحكم، إذ يقول تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) [الأنعام].

فهذه الآيات إجابة على فساد التأويل، وزيغ الأهواء، بأنّها تخرصات الجاهلين الضالين.

إنّ الصاحب بن عبَّاد ينطلق من الذوق البلاغي والتفكير النقدي، مؤكدًا اجتماع أهل الصلاة - مع كثرتهم واختلافهم - على أنّ القرآن الكريم منزّه عن الاختلاف والتناقض، والتدافع والتهاتر، بل بعضه يشد بعض، يقول: "وليس من المتشابه آية إلا وقبلها وبعدها ما يفصح فيها عن المراد منها"(ابن عبَّاد، 1955: 39).

وهذه قاعدة قرآنية بلاغية شريفة تُحسب لابن عبَّاد، وتؤكد رسوخه علمه ونفاسة مقالته. وهو يدور في فلك قول الله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) [النساء:82].

3- إرجاع المحكم إلى المتشابه لا يعني أنّهما متناقضان، بل يستطيع أي طالب علم أن يرد على تخرّصات المجبرة في قولها بالتناقض، بين قول الله عز وجل: (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) [التوبة:87]، وقوله عزّ قوله: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) [الإسراء:94].

إنّ مقتضى الحال أو السياق أو المقام، حاسم في المعنى، فلا بد من النظر في السياق الذي جاءت فيه الآية الشريفة، فما يصح للمدح في مكان، قد يأتي للذم في غير ذلك.

4- ويشترط التدبر. "وإذا تدبّرت آي الإضلال أجمع، لم تجد الله يقول: أضللت عن الدين" (ابن عبَّاد، 1955: 44).

5- أن تُعرضَ هذه الوجوه، حتى يأمنَ اللبس (ابن عبَّاد، 1955: 44).

6- إحصاء الألفاظ التي يُراد تبيان معانيها،، وقياس النظم في باقي الكلام. وهذه في غاية الأهمية، بل لون من إعجاز القرآن الكريم، فاللفظ يعطي معنىً مختلفًا عن غيره بحسب الآية التي يرد فيها وأسلوب نظمها وسياقها. مثال ذلك لفظة (الهداية)، فمن معانيها (ابن عبَّاد، 1955: 41-42):

الهداية ومعانيها: إزاحة العلة، وإقامة الدلالة والدعاء إلى الطاعة: (وأما ثمود فهديناهم). ومعنى الهدى إلى الجنة، وهو الثواب: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) [الأعراف:43]، ومما يشهد أنّ الهدى إلى الجنة ثواب، (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي...)[يونس:9]، ويمنعه الكافرين، (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...)[آل عمران:86].

ومعنى الزيادة التي وعدها الله المهتدين: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد:17]، (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11].

ولفظة (الإضلال) على وجوه (ابن عبَّاد، 1955: 43- 44):

- ما يفعله الشياطين: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي) [سبأ:50]

- الإضلال عن الثواب، جزاءً على قبيح الأعمال: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) [إبراهيم:27]

- الضلال بمعنى الهلاك والإضلال الإهلاك: (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...)[محمد:4]، فالهداية قد تكون إلى الثواب والإضلال قد يكون عن الثواب.

- والإضلال بمعنى الهلاك: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) [القمر:47]

والإضلال بمعنى وجوده ضالًا: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]

7- الاستناد على طريقة العرب في تحديد المعنى، فقد أخذ بقول عمرو بن مَعْدي كَرِب، (قاتلنا بني سليم فما أجبناهم، وسألناهم فما أبخلناهم، وهاجيناهم فما أفحمناهم) ليؤكد أنّ الإضلال معناه وجود المرء ضالًا (ابن عبَّاد، 1955: 44).

8- يعتمد المعنى المعجمي للمفردات، (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) [الكهف:28]. بأنّ الغفلة إضلال، ولها معنى آخر ألا وهو ما لا وسم عليه، فهو متروك (ابن عبَّاد، 1955: 46).

9- يعتمد ابن عبَّاد التأويل بشكل لا لبس فيه: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) [البقرة:26]. والدليل على أنّ هذا الإضلال عقاب - كما تأولنا - قوله في آخر الآية: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (ابن عبَّاد، 1955: 45).

10- يسلك في التأويل طريقة تفسير القرآن بالقرآن، فقد رأى أنّ قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ) [يس:8] من باب التمثيل، وليس حقيقة بدليل قوله تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) [البقرة:18]، وقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد:24]. وقد استعمل ثلاثة أدلة لتأكيد ما ذهب إليه، أولها القرآن الكريم نفسه، وثانيها الشعر، يؤيد كلامه بالشعر، بقول الأفوه الاودي:

كيف الرشاد وقد صرنا إلى نفر لهم عن الحقِّ أغلالٌ وأقيادُ

وثالثها العقل، إذ لو كان في أعناقهم أغلال حقيقةً، لكان على قلوبهم أقفال(ابن عبَّاد، 1955: 46).

أمّا قوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف:5]، فهذا عنده على طريق الجزاء، لقوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) [الشورى:40] (ابن عبَّاد، 1955: 47-48). وهو يُأوّل الآية، لأنّها في الحقيقة ليست سيئة مثلها، بل عقوبة لها، مثل قوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) [البقرة:194][1].

11- يُحكّم العقل في بعض المواضع، فجعل قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) [النمل:80] من التمثيل، إذ المعلوم إنّهم أحياء ولم يكونوا أمواتًا، وقد قال تعالى: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) [يس:70].

12- الاحتكام إلى سنن العرب في الكلام، يفسّر قوله تعالى: (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) [آل عمران:7]، بأن الأمّ هي الأصل والمثابة، كقولهم: أمّ القرى، وأمّ طبق، وأم حَبَوْكرَى. ويردفه بقول خلف الأحمر:

قد طرَّقتْ بِبكرِها أمُّ طَبَقْ موت الإمام فِلقة من الفِلَقْ

وقول عمرو بن أحمر الباهلي:

فلمّا غَسا لَيْلِي وأَيْقَنتُ أَنَّها هي الأربى جاءتْ بأمّ حبوكرى (ابن عبَّاد، 1955: 51).

---

[1] أي من باب المجازاة والمشاكلة في البلاغة، فالاعتداء الأوّل عدوان، والثاني قصاص (الفرَّاء:117/1).

13- الإفادة من رياضة العقل بإعطاء علة وسببٍ لوجود المحكم والمتشابه، أنّه لو كان جميعًا مشبهًا لغمُض التأويل والتفسير، ولو كان جميعا محكمًا لذهب العلم والتعلّم وما لهما من عبَّادة وبركة (ابن عبَّاد، 1955: 51).

14- أجاب على سؤال كبير: لِماذا أنزل الله تعالى في القرآن متشابها، ولم يجعله كله محكمًا؟ فرأى أنّ ما جاء منه متشابهًا فهو من وجوه الإعجاز والبيان والتدبر(ابن عبَّاد، 1955: 47).

الاعتزال في بلاغة الصاحب

لا يخفى على الدارسين أثر المعتزلة الكبير في نشأة علم البلاغة العربية وتطوره، ومن الطبيعي أن تُنثر أفكارهم فيما ألّفوه. وابن عبَّاد ليس بدعًا عنهم، بل في مقدّمتهم، فإنّ رسائله الكلامية والعقدية عنوانها الأوضح الاعتزال.

وإذا كان النقد والسرقات الأدبية مضمون بلاغته في (الكشف عن مساوئ المتنبي)، فإنّ الاعتزال طاغٍ على (رسالة في الهداية والضلالة)، وليس بمستغرب، فالغاية منها عقدية أصلًا.

وحين القراءة بحثًا عن الأصول الخمسة لأهل العدل المعتزلة (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، يتضح الأمر جليًّا.

أول ما يطالعنا به المؤلّف الدعوة إلى التمييز بين الأمور، بالعقل والفحص، وليس بالعقل الناقص، أو الذي يسوق المعاني لما يريد وإن كان على خلاف الظاهر، وإنّ سقوط العقل في تفسير الكتاب الكريم، يقتضي

ذهاب طريق الله تعالى(ابن عبَّاد، 1955: 40)[1]. وهذا أصل للتدبر والتفسير أيضًا، وليس مبدأ اعتزاليًا فقط.

ثم إنّه جعل سبب ضَلال بعضِ مَن فَسَّرَ المتشابه الذهاب إلى التشبيه والجبر، وترك العقل.

يسخّر المؤلف السياق[2] فيؤوّل الآيات إلى معنى العدل، ففي قوله تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) [البقرة:10] (ابن عبَّاد، 1955: 44)، رأى أنّ آخر الآية دالّ على أولها، في أنّ الله لا يترك الكافر، بل يجدد حجبه.

ويحيط الإشكالات ليؤكد كلامه بهذا المبدأ، فيقف عند قوله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) [الأنعام:125].

الهداية من الله اليقين، والضلال الشكّ جزاء على سيّئاته، وهذه الحال تجبر صاحبها على طلب الحق والخروج من الضيق إلى فسحة الأمل واليقين، ولكن هذا مشروط بالفطرة السليمة، أما إذا كان يبحث عن دنيا ورئاسة، فلن يخرج من الضياع والضلال، فهؤلاء (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) [البقرة:10]. وينطبق عليه قوله تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين:14].

وفي الآية دليل على عدل الله تعالى، لأنّه يجدد الحجب ويضاعف الأمر والزجر، وقد استدلّ ابن عبَّاد بآخرها على أولها (ابن عبَّاد، 1955: 39).

---

[1] وقد انتقد الجبرية وهم الذين يرَون الإنسان مسيَّرا وليس مخيَّرا.

[2] عملا بالأصل الذي ذكره:39" وليس من المتشابه آية إلا وقبلها وبعدها ما يفصح فيها عن المراد منها".

أمّا الإغواء في قوله تعالى: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:59]، بمعنى التعذيب والإهلاك فلا يجوز أن يفعله الرحمن، والله يفعل ذلك عقابًا للمسيئين، لقوله تعالى: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر:39]، أي عذبتني، جزاءَ عدم سجودي، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص:75].

وقد جاء رأيه بعد تقليب معاني الإغواء في العربية، فإنّها تأتي بمعنى التخييب (ابن النحاس، 1985: 381/2)، (ابن عبّاد، 1955: 47)، كقول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:179]، تتعدد معاني اللام، وهي من المتشابه، يراها أهل الجبر (لام العلة)، وجعلها أهل العدل (لام العاقبة)، وقد انتصر ابن عبّاد لمذهبه العدل، بأن ردّ الآية إلى مثلها من المحكم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] (ابن عبّاد، 1955: 49- 50)[1]، وأيّد رأيه بقول عبيد بن الأبرص:

فلا تجزعوا لحمام دنا وللموت ما تلد الوالده

وقول سابق البربري:

وللمَوتِ تَغذُو الوالِداتُ سِخَالَها كما لِخَرَابِ الدُّور تُبنَى المَسَاكِنُ

وقول سِماك بن عمرو الباهلي:

وأمَّ سِماكٍ فلا تجزعي فللموتِ ما تلدُ الوالدهْ

[1] ولابن قتيبة ما يقاربه (الدينوري، 1973: 73).

خاتمة

اتضح مما سبق أنّ جهد الصاحب متوزّع بين التنظير والتطبيق، وآراؤه البلاغية واضحة، تنقسم على التنشئة الأدبية والنقد الأدبي وخدمة القرآن الكريم على طريقة الاعتزال، فإذا كانت الهداية إلى الله فإن الضلالة في مفهومه - أحيانًا - مخالفة قواعد أهل العدل (المعتزلة).

وعلى عادته في باقي مؤلّفاته لا يرتكز على كلام غيره، بل يبدي رأيه، وطابع الرد[1] والنقد لا يخفى على أحد. وقد استشهد في رسالة الهداية والضلالة بالآيات القرآنية والشعر. وفي الكشف عن مساوئ المتنبي أفاد من شواهد الشعراء السابقين، لذا طغى الجانب الأدبي على أسلوبه جميعًا، بدلالة التدبر والسياق والقرآن الكريم والذوق والإحصاء وشعر العرب وطرائقهم في الكلام، مع الإفادة من طريقة أهل الكلام في العرض والاحتجاج، ومنها أدلة العقل ورياضة العقل والمنطق والحجة.

المراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين الجزري (ت637هـ). الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور. قام بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد. المجمع العلمي العراقي. بغداد. 1969م.

[1] مع أنّ الدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي عند العرب:267 رأى أنّ انتقاداته على المتنبي تحاملًا، وأنّها من الشائع في عصره.

- ابن النحاس، أبو جعفر محمد بن إسماعيل (ت328هـ). إعراب القرآن. تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد. عالم الكتب. بيروت. ط2. 1985م.

- ابن عبَّاد، الصاحب (ت385هـ). رسالة في الهداية والضلالة. حسين علي محفوظ. مطبعة الحيدري. طهران. 1955م.

- ابن عبَّاد، الصاحب أبو القاسم إسماعيل (ت385هـ). الكشف عن مساوئ شعر المتنبي. تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين. مكتبة النهضة. بغداد. 1965م.

- ابن عبَّاد. للصاحب كافي الكفاة إسماعيل (ت385هـ). الفصول الأدبية. حقّقه الشيخ محمد حسن آل ياسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1982م.

- ابن فورّجة، محمد بن أحمد (ت في حدود 450هـ). الفتح على أبي الفتح. تحقيق عبد الكريم الدجيلي. وزارة الإعلام. بغداد. 1974م.

- ابن وكيع، أبو محمد الحسن بن علي التنيسي (ت393هـ): المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي (ج1). حقّقه محمد يوسف نجم. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض. ط1. 2021م.

- الجاحظ، أبو عثمان (ت255هـ). البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط7. 1998م

- الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الحلبي (ت466هـ). سر الفصاحة. صحّحه وعلّق عليه عبد المتعال الصعيدي. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح. القاهرة. 1952م.

- الدينوري، ابن قتيبة (ت276هـ). تأويل مشكل القرآن. شرحه ونشره السيد أحمد صقر. دار التراث. القاهرة. ط2. 1973م.

- طـه، د. هنـد حسـين. النظريـة النقديـة عنـد العـرب. وزارة الثقافـة والإعلام. بغداد. 1981م.

- عباس، د. إحسان. تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. دار الشروق. عمان. ط1. 1993م.

- الفرَّاء، أبو زكريا (ت207هـ). معاني القرآن. تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي. الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة. د. ت.

- المعرّي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت449هـ). اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي. حقّقه محمد سعيد المولوي. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض. ط1. 2008م.

- الواحدي، أبو الحسن (ت468هـ). شرح ديوان المتنبي. فريدريخ ديتريصي. برلين. 1891م.